مجلة الإحياء، المجلد 24، العدد: 35، سبتمبر 2024، ص - ص: 321 - 332
الترقيم الدولي: 1112-4350 الترقيم الدولي الإلكتروني: 2588-2406

التشكيل النّصّي في رسالة: "الصّاهل والشاحج" لأبي العلاء المعرّي 449هـ
Textual formation in a treatise of: “Al-Sahil and Al-Shahj” by Abu Al-Alaa Al-Maarri

د/ عمر عروي
Amar AROUI
كلية العلوم الإسلامية - جامعة باتنة1
مخبر بحث العلوم الإسلامية في الجزائر
amar.aroui@univ-batna.dz

تاريخ الإرسال: 2024/03/26 تاريخ القبول: 2024/09/15

الملخص:
تأتي أهمية مداخلتي الموسومة بـ (التشكيل النصي في رسالة الصاهل والشاحج لأبي العلاء المعري 449هـ) بتصور بناء الأجناس السردية في الموروث العربي، والتي تتمظهر في العديد من الأشكال مثل المقامات والوعظ والسيرة والأخبار والقصص، والكثير من أنماط الشعر الهزلي؛ بأسلوب جمالي هادف، لأغراض قصدية متعددة، وذلك من خلال تتبع البناء النصي في رسالة الصاهل والشاحج لأبي العلاء المعري كمقاربة للسرد في التراث العربي، لاستكناه مدى تحقق المعايير النصية لها، وتتبع العلامات والمعايير النصانية المشكّلة للخطاب السردي، وأهم سماته ومميزاته.
الكلمات المفتاحية: التشكيل النصي؛ النص؛ التحليل؛ السرد؛ الرسالة.

Abstract:
The significance of my intervention, labeled "Textual Structuring in the Message of Al-Sahil and Al-Shahj by Abu Al-Ala Al-Ma'arri in 449 AH," lies in the conceptualization of narrative genres in the Arabic heritage. These genres manifest in various forms such as poetry, sermons, biographies, news, stories, and many types of humorous poetry. This is done in a purposeful and aesthetically meaningful manner for multiple intended purposes. It involves tracing the textual structure in the message of Al-Sahil and Al-Shahj by Abu Al-Ala Al-Ma'arri as an approach to narrative in the Arab heritage to assess the achievement of its textual standards. It also involves tracing the signs and textual criteria that shape the narrative discourse, highlighting its key features and characteristics.
Keywords: Textual Structuring; Text; Analysis; Narrative; Message.

مقدمة:

النص الفني - شعرا كان أم نثرا- يتضمن في عمقه الداخلي نصوصاً أخرى ذات دلالات متفاوتة عديدة، تختلف تارة، وتتقارب تارة أخرى، فالنص في عمقه المعرفي ليس بناء لغويا فحسب، بل يتعداه إلى سياق تفاعلي بين متكلم ومتلقي قارئا كان أم سامعا، هذا التفاعل والتعالق يتم بتراكيب تتآلف وتنسجم

على نحو دقيق، ومتماسكة ومتناسقة بقيم فنية وعلمية دقيقة، ولا تكون النصوص أدوات تواصل فردية ذاتية، بل تعد نتائج متجاوزة الأفراد، إلى قيم اجتماعية عامة.

شهد السرد الفني تطورا وازدهارا جليا في تراثنا العربي، وكان وراء ذلك عدة عوامل أهمها: نشاط الترجمة، والنهضة العلمية الغزيرة التي اشتهرت في العصر العباسي، فنتج عنها كثرة الدواوين والتأليفات، ومن أهم مظاهر التطور والازدهار للسرد الفني في هذا العصر: تعدد أنماط السرد وفروعه، واتساع موضوعاته، وتنوع أساليب الكتاب.

وقد وصل إلينا الكثير من التراث القديم ما يمكن أن نصطلح عليه بالأدب السردي لما يتضمن من قيم ومعايير وعناصر سردية أهمها: سرد الأحداث، وصراع الشخصيات، وتقديم فكرة أو معنى.

وتجسدت إشكالية الدراسة من خلال جملة من الأسئلة أهمها: كيف يتمظهر البناء النصي لرسالة الصاهل والشاحج لأبي العلاء المعري؟ وما مدى تمثل النصانية على مستوى السرد في تراثنا العربي؟ وكيف تتمظهر الملامح والمعايير النصية على مستوى جميع الأشكال السردية؟

ولمعالجة هذه الإشكالية دراسة وتحليلا تطرقت في دراستي إلى عدة عناصر أهمها: - التعريف بالسرد مقوماته وأشكاله وأنماطه - التشكيل النصي - الملامح والمعايير النصانية - تمظهرات النصانية على مستوى الأشكال السردية - دراسة تحليلية للصاهل والشاحج لأبي العلاء المعري - خاتمة.

1- السرد الفني بين المفهوم والإجراء:

يعد السّرد في العرف اللغوي تتابع وتدرج الأحداث والأفعال، دون انقسام أو انفصال، يقول ابن منظور صاحب لسان العرب: «**هو تقدمة شيء إلى شيء تأتي بهِ متسقاً بعضُهُ في أثر بعض متتابعا**»[1]، وبهذا فهو فعل فني غير محدود القيم، يشمل جميع النصوص والخطابات الفنية، وهو نقل الحدث أو الواقعة عبر نص ملفوظ بخصائص ومعايير وشروط خاصة تميزه عن بقية النصوص.

والأسلوب السردي يهتم بتصوير الحياة العامة (البيئة والمجتمع) بدقة متناهية تصويرا يعكس الواقع بوضوح، لما له من نجاعة وقوة في التأثير على المتلقي، لأنه يصور له الأحداث والوقائع في شكل حضوري تمثله الشخصيات المتحاورة، بسبب أن السرد يعتمد الحوار في أساسه، مع التشويق والإثارة التي تثير المتلقي القارئ والمستمع على حد سواء.

والمعلوم أن السرد قد عرفه أدبنا العربي منذ القديم، ومارسه العرب في خطاباتهم اليومية من خلال الكثير من الحكايات والمرويات والقصص مما شكل أدبا سرديا بامتياز، يحمل جميع القيم والمعايير الفنية التي يتضمنها الخطاب السردي.

2- أشكال وأنماط السّرد في التراث العربي:

حفل التراث الأدبي عند العرب بالكثير من السرديات، الأنماط الحوارية التي تعددت أشكالها، وتنوعت نماذجها، حتى صعب حصرها وتحديدها وتصنيفها؛ فمنهم من اهتم بالطول والقصر، ومنهم من اهتم بالمعنى والدلالات، ومنهم من اهتم بالشكل والموضوع[2]، ويمكن لنا أن نلخص هذا التنوع السردي في التراث العربي بحسب الموضوع والشكل إلى:

أ- **الأسطورة والخرافة**: مثل قصة ربيبة الجان، وحكايات ألف ليلة وليلى، وغيرها من الأساطير والخرافات التي تضمنتها الكثير من المصادر الأدبية والتاريخية.

ب- **القصص الديني**: مثل قصص الأنبياء، وكل ما جاء في القرآن الكريم من قصص مثل قصة يوسف عليه السلام وقصة موسى عليه السلام.

ج- قصص الحيوان: مثل كليلة ودمنة، والنمر والثعلب، والشاة والذئب، ورسالة تداعي الحيوان على الإنسان لإخوان الصفا ق 4هـ، ورسالة الصاهل والشاحج لأبي العلاء المعري ... الخ

د- المقامات: مثل مقامات كل من الهمذاني (395هـ)، والحريري (516هـ)، والزمخشري (ت 538هـ)، والسيوطي (ت 911 هـ) وغيرهم.

هـ- القصص الشعبية: التي يغلب عليها حكايات الأبطال مثل سيرة كل من عنترة، والظاهر بيبرس وقصة مجنون ليلى، وقيس ولبنى وجميل بثينة وكثير عزة وغيرها من القصص التي تضمنتها الدواوين الشعرية، والكتب الأدبية.

و- النوادر والحكايات الفكاهية: مثلما جاء في كتاب البخلاء للجاحظ 255هـ، والتطفيل وحكايات الطفيليين للخطيب البغدادي ت 463 هـ، وغيرها.

3- رسالة الصاهل والشاحج لأبي العلاء المعري[3]:

كتاب الصاهل والشاحج هو رسالة طويلة على شكل حوار سردي تكلّم فيها على لسان فرس وبغل، وقد صنّفه للأمير عزيز الدولة أبي شجاع فاتك، الذي كان واليا على مدينة حلب في عهد الحاكم وبعض أيّام الظَاهر، وهذه الرسالة تعكس لنا براعة المعرّي وعبقريته التي استعمل فيها زخما من إبداعاته مثل غريب الألفاظ وألوان الزخرف البديعي والتزويق والتنميق اللفظي من سجع وطباق ومقابلة واستعارة وتشبيه وهذا يعكس حالة الفراغ الطويل الذي عانى منه أبو العلاء، وعزلته عن الناس، وشعوره بنقصان حاسة البصر، فأضحى أدبه معقدا، يتضمن مسحات فلسفية، وغموضا جليا.

السياق العام لرسالة الصاهل والشاحج هو سرد هذه الأحداث التي جرت في تلك الحقبة، بأسلوب حواري مليء بالتيمات السردية التي تنبني عليها القيم والمعايير النصية، فجاءت الرسالة متضمنة كل مستلزمات فن القصة على وجه الخصوص من فعل وخبر وحبكة وموضوع مثلت الأحداث، ومغامرات وواقعية وأساطير وتمثيلات واستشهادات وشخصيات وحوار قائم بينها، وكل هذا ضمن زمن احتوى أحداث السرد القصصي.

4- التشكيل النصي في رسالة الصاهل والشاحج:

التشكيل مفهوم واسع ومتشعب لا يقتصر على النظرة الشكلية الخارجية للجوانب التركيبية في النص بل يتجاوزه للوقوف على الجوانب الصوتية والدلالية والنحوية والصرفية والرمزية، واستحضار العناصر والقرائن السياقية التي تكتسي الأهمية القصوى في بناء النص[4].

فالتشكيل النصي للنص السردي هو مختلف المعايير النصية، أو نمط من أنماط الصور اللغوية والحمولات الدلالية، والقيم البلاغية والرموز الصوتية، وأشكال التعبير، وسماتها الأسلوبية، والقوالب الفنية، وكل الشروط والمقاييس التي تجعل من كل تعبير نصا مكتمل الأركان، ويحقق شروطه جميعها.

إن التشكيل النصي في رسالة الصاهل والشاحج يحوي المؤثرات النفسية والمعنوية التي دفعت السارد إلى اختيار مجموعة من الأساليب اللغوية دون غيرها، تبعا لمؤثراته النفسية، حيث نجد أن المتلقي للنص السردي يستطيع أن يكشف عن الاشراقات الدلالية العديدة للنص، وتتفاوت هذه الأساليب التي يتشكل منها النص في القدرة على رصد الحمولات الدلالية التي شحن بها الخطاب السردي، فالأمر يتوقف على الكفاءات والقدرات التي يتميز بها المتلقي، والتي تؤهله لرصد هذه المثيرات الأسلوبية[5].

5- **أنماط التشكيل النصي لحوارية الصاهل والشاحج:**

إذا تأملنا الخطاب السردي في رسالة الصاهل والشاحج من حيث التعبير الأسلوبي، والتصوير اللغوي فإننا نقف على مستويين اثنين من هذا التصوير، وشكلين متوازيين منه على الشكل التالي:

أ ـ المستوى الأول: لغة تصويرية مباشرة: تتسم بالسطحية والبساطة، تعكسها البنية الخارجية للرسالة، التي تحدد معناها ومضمونها الجوهري، لأن أبا العلاء المعري في مستواه السردي تصارعت بداخله أسئلة كانت مستوحاة من مرئياته الواقعية، ومؤثراته النفسية، بعيدا عن التخييلات والتوقعات الذاتية والتخمينات غير الحقيقية، وبعيدا عن ذائقته الأدبية.

ب- المستوى الثاني: لغة تصويرية سردية فنية: تعكسها البنية العميقة التي تحدد المستوى الأدبي والفني لرسالة الصاهل والشاحج.

تعتمد هذه اللغة على عناصر عديدة تحدد مستوياتها الفنية العليا مثل: التخييل، والكنايات والترميز والصور البلاغية مثل: التشبيهات والاستعارات والكنايات والمجاز، والألفاظ الموحية المعبرة، وتوظيف الكلمات المتعددة الدلالات، واستثمار المستوى الانزياحي من اللغة، مع وجود الإيحائية، فكان الحوار الذي تعددت مستوياته بين حوار داخلي وحوار خارجي، لأغراض تخدم البنية السردية، حيث تنوع الحوار ضمن الاستفهام في حواريات الصاهل والشاحج كأسماء وحروف الاستفهام، بتوظيفها بشكل تلقائي حسب مقتضيات حال واقع الخطاب، نحو قوله: من أين طرأ علينا الكريم؟ ومن أين علمت بالكرم؟[6].

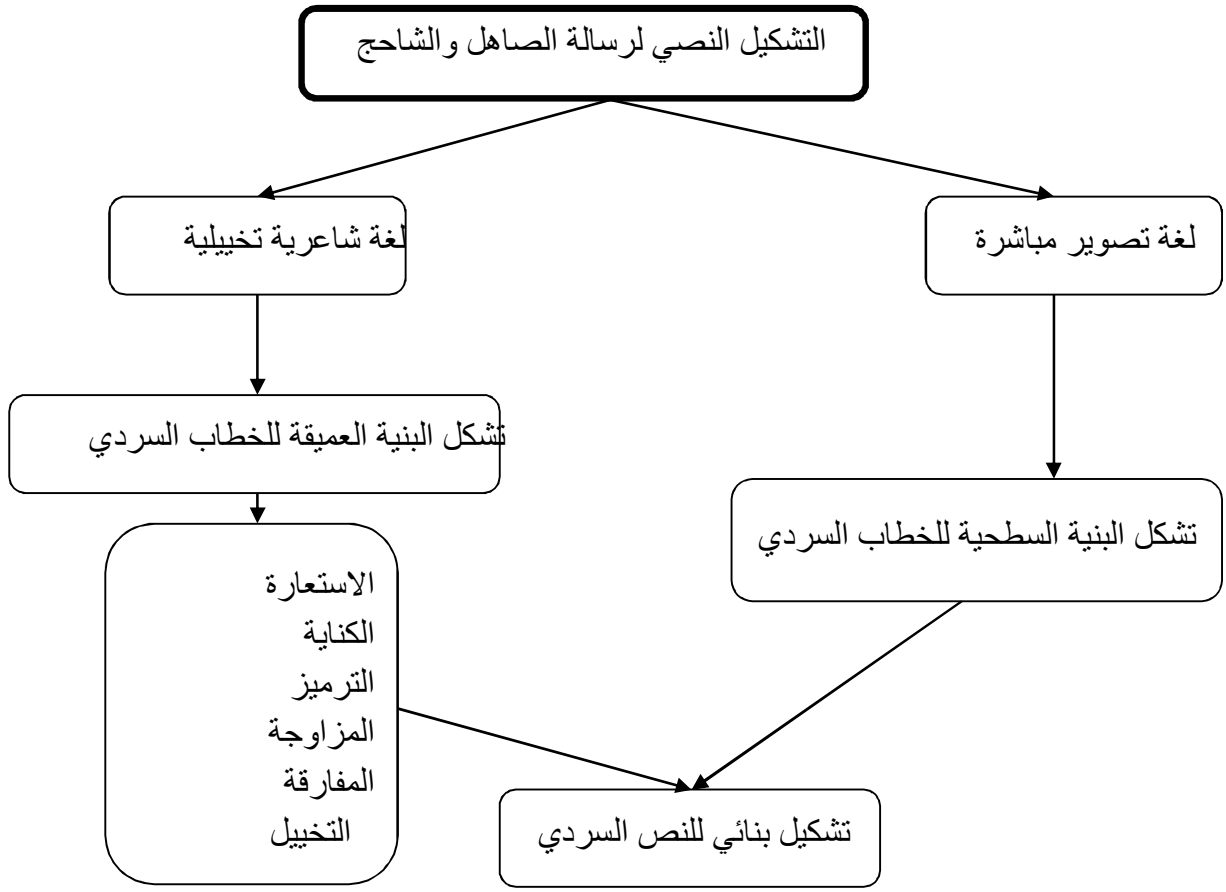

6- تمظهرات المعايير النصّية في رسالة الصاهل والشاحج:

إن نصية رسالة الصاهل والشاحج، تتعالق مع وجود نص مكتمل الأركان، يتسم بالنمط السردي، لما يحويه من معايير وقيم فنية، فالنص ليس مجرد توالي ألفاظ لسانية، أو مجموعة كلمات مجتمعة دون ترتيبٍ أو تنظيم، بل النص بناء مكتمل يحقق جميع الشروط اللازمة، من موضوع ومعنى، وتعبير وأسلوب مُحكم، مترابط شكليا ودلاليا[7].

وهو يتطلب تحقُّق مجموعة من الخصائص أو الشروط والمعايير الضرورية التي تؤهله لحمل اسم "نص"، فهذه المعايير هي ما يميِّز النص عن العشوائية، واللانصية، وتنقسم هذه المعايير إلى معايير تختص بالنص (**الاتساق والانسجام**)، ومعايير تختص بالمؤلف والمتلقي (**القصدية والإعلامية والتقبلية**)، ومعايير تختص بالسياق الخارجي (**الموقفية والتناص**).

تمثل رسالة الصاهل والشاحج سياقا نصيا أبدعه أبو العلاء المعري، تحققت على مستواه جميع المعايير النصية، والشروط الفنية، التي أحكمت بناءه بشكل جلي وواضح، ولنأخذ مقطعا سرديا من بداية رسالة الصاهل والشاحج يعد نموذجا واضحا للنظام السردي في الرسالة، لأنه عتبة الموضوع، حيث تمظهرت على مستواه ملامح النصانية ضمن مستويات عديدة بدءا بالعنوان ثم الموضوع ثم اللغة ثم الحوار والإحالة المتعددة بنوعيها الداخلية والخارجية، والإبدال، والحذف، والربط والتماسك المعجمي.

المعيار الأول: الاتساق والانسجام:

1- الإحالة: والتي تتحقق بالضمائر بأنواعها، وأسماء الإشارة، والتعريف بأل، والمقارنة وغيرها:

النموذج الأول: من أين طرأ علينا الكريم؟

إحالة بالتعريف ← إلى الصاهل قصد المدح والوصف

هنا إحالة بالتعريف أل فالكريم: هنا هو الصاهل، ودلالتها: القوة في المدح، لإثارة التقبل في حمل الرسالة التي سيوجهها الشاحج، فوصفه بالكريم، والكريم ما يجود بما فيه يديه من خيرات للجميع، وهو الواقف في خدمة أقرانه.

والكريم هنا جاءت مسندا إليه للمسند: طرأ.

النموذج الثاني: ومن دون عينك حجاب قد شُدَّ

إحالة بالضمير المخاطب ← إحالة إلى الشاحج

إحالة بضمير الخطاب المتصل: الكاف، وهي مضافا إليه، أفادت مكمن الشاحج، حيث أحات به الأسوار وحالت دونه الحواجز، فكأنه يرمز إلى شدة الحصار والمنع الشديد، حتى أن هذه الحواجز منعته رؤية عالمه الذي يحيط به.

النموذج الثالث: لو كان دون العين النابعة لما فارت

إحالة بأل العهدية ← إحالة على سابق مذكور

إحالة على سابق مذكور وهو العين: حينما ذكر: دون عينك، وإعادة ذكر لفظ العين هنا: دون العين، بأل العهدية: اللفظية، حيث أن العين الأولى دون الثانية في دلالتها ومعناها، فالأولى العين الباصرة أما الثانية فهي العين الجارية.

النموذج الرابع: عرفت كرمك في وطئك وصوتك

إحالة بضمير المتكلم (الشاحج) والمخاطب (الصاهل)

هنا إحالة بكاف الخطاب في الألفاظ: كرمك ووطئك وصوتك، وهي إحالة على الصاهل، والدلالة لقوة الاستنباط، حينما عرف الشاحج كرم الصاهل بصوته، ووقع حوافره على الأرض، وهنا نلمس رمزية الحصان في أن العرب يكرمونه، ويجعلونه كريما أصيلا في كل متعلقاته.

النموذج الخامس: فمن أين لك ذلك

إحالة بالإشارة ← أي الأمر في العلم ومعرفة الأشعار والأنساب

هذه إحالة باسم الإشارة: ذلك، تحيل على العلم ومعرفة الأنساب، والأشعار وكلام العرب قديمه وحديثه، وهذا ما يشكل علاقات ترابطية تربط بين أجزاء النص السردي: الصاهل والشاحج، مشكلة ما يعرف باسم التعالق النصي، وهذا الأمر يكون بعناصر الإحالة بشتى أنواعها، وخاصة أسماء الإشارة.

النموذج السادس: هو بجديب

إحالة بالضمير المنفصل المحيل إلى غائب يعود على الأمير المقصود

الإحالة بالضمير تكتسي الأهمية البالغة في عرف اللسانيات النصية، من خلال ما تؤديه من ربط أجزاء النص، وتحقيق وحدته البنيوية، والإسهام في تجسيد معايير النصية، وهنا نجد توظيف ضمير الغائب: هو الذي يحيل على غائب حال الخطاب يدل على الأمير المقصود.

النموذج السابع: تلك الحسناء

إحالة بالإشارة ← إحالة سابقة تحيل إلى المرأة حذام المذكورة سابقا

إحالة تعود على سابق، تدل على المرأة حذام، وقد ذكرت في سياق التمثيل، لما لها من رمزية ومثل في كلام العرب، واللفظ: تلك، هو اسم إشارة جاء هنا لغاية المدح والمبالغة في الحسن، للتعظيم والإشادة بها.

2- التماسك المعجمي:

يقع تماسك النص في مستويات عديدة، وقد أسهم هذا التماسك في نص رسالة الصاهل والشاحج في ترابط أجزاء الرسالة ومتانتها، على المستويين الشكلي والدلالي، من خلال عدة عناصر تضافرت في تحقيق وتجسيد نصانية رسالة الصاهل والشاحج، منها التكرار، والاستبدال، والحذف، والحجة، والرمز.

أ- التماسك بالتكرار:

أكرمت أكرمت

تكرار لفظ معجمي له نفس الدلالة للتوكيد

تم تحقيق تماسك النص، وترابطه الخارجي من خلال تكرار اللفظ: **أكرمت**، الذي له الدلالة نفسها لما يسبقها، ويعد هنا عنصرا بالغ الأهمية في تحقيق توكيد الكلام، تثبيت فعل الكرم دون غيره.

ب- التماسك بالاستبدال:

التماسك النصي على مستوى الاستبدال من أهم عناصر النصانية، والذي يسهم بجدارة في تحقيق قوة الارتباط بين أجزاء النص، من عبارات وألفاظ، وتحقيق الارتباط بين اللفظ والمعنى، إذ نجد الترادف قائما في رسالة الصاهل والشاحج في الكثير من الألفاظ، والتي تتقارب معانيها إلى حد الانطباق، أو تتغاير نسبيا حسب السياق الذي ترد فيه، نحو: علومك ومعارفك، منيع وشديد، كلام وحديث، ينبوع الكرم وأم النعيم...إلخ.

ج- التماسك بالحذف:

السؤال: من أين مبدأ سفرك؟ ⟵ ∅ ⟵ الجواب: من مصر ⟵ الغرض: الاختصار

↓

مبدأ سفري من مصر

قد يحدث تماسك النص وترابطه من خلال عامل الحذف في أثناء الكلام، وهو الحذف المقصود لدلالات عديدة، أهمها الاختصار، والعلم بالشي، ومعرفة المقصود، وتنزيهه على الذكر، وغيرها، وقد جاء هنا حذف أهم عناصر الإسناد، وهو: المسند إليه، والتقدير: مبدأ سفري هو من مصر.

د- التماسك بالرمز:

الصاهل ⟵ صوت الفرس والحصان ⟵ كرم وارتقاء

الشاحج ⟵ صوت البغل ⟵ ضعف وابتذال

احتوت رسالة الصاهل والشاحج على العديد من القيم الرمزية، والرموز الدلالية، ولا جرم في ذلك فالنص منبني على حوارية على لسان الحيوان، الصاهل والذي هو صوت الفرس والحصان، والشاحج الذي هو صوت البغل، قد وظفهما أبو العلاء المعري رموزا لها دلالات كثيرة، **فالصاهل** رمز القوة والكرم والارتقاء والنبل، **والشاحج** رمز الضعف والابتذال وقلة الاهتمام والضجر.

هـ- التماسك بالحجاج والاحتجاج:

أولا: الاقتباس: يعد الاقتباس نموذجا مهما في باب الاحتجاج، فهو لتقوية الحجة، وتثبيت الكلام ودقة العبارة، وسلامة المعنى، وأقوى هاته الحجج والاقتباسات ما كان من القرآن الكريم حيث كثر الاستشهاد بالقرآن الكريم كثيرا في رسالة الصاهل والشاحج، مثل قوله في بداية رسالته: «.. كما نطق به الكتاب الكريم، من قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص : 14]»[8]، ويمكن لنا أن نستشف من كثرة الاقتباسات ما يحمله أبو العلاء المعري من ثقافة إسلامية واسعة، وحس ديني مرهف، يظهر مدى تعلمه ويعكس ثقافته الواسعة، وحق له ذلك فهو الذي نهل من جميع المعارف.

ثانيا: ضرب الأمثال والحكم: قد وظف أبو العلاء المعري في رسالته الكثير من الأمثال والحكم، متعددة الدلالات، منها الشعبية الضاربة في عمق التاريخ القديم، ومنها ما هو له علاقة بالشعر والثقافة الأدبية الواسعة، مثل قوله: وأن الدرهم إذا جعل في كيس فما يزال في تنكيس وأيضا: الإنفاق أفضل من الإشفاق، وأيضا: القول ما قالت حذام.

ومن مظاهر الانسجام التي تتجلى بوضوح على مستوى رسالة الصاهل والشاحج نجد وحدة الموضوع، والعلائق المعنوية، والحمولات الدلالية، التي شحنت بها التراكيب مشكلة بذلك وحدة متكاملة تؤدي إلى بنائية النص.

المعيار الثاني: القصدية

معيار القصدية أو المقصدية هو معيار ينتمي إلى مباحث التداولية؛ وإذا بحثنا في الخطابات التي تشتمل عليه بشكل واضح نجد الخطابات التي تحوي في ثناياها الأفعال اللغوية، سواء أكانت تقف عند المستوى الإنجازي، أم تتجاوزه إلى المستوى التأثيري الانفعالي الذي يتشكل من خلال ذلك التفاعل الإيجابي بين المتكلم والمتلقي، من خلال الفعل وردة الفعل.

فالقصدية تتضمَّن موقف منتج النصِّ من خلال تلك الصور اللغوية، التي تؤدي إلى إنتاج نص يتمتَّع بالسَّبْك والترابط والالتحام، باستخدام الوسائل والعناصر اللغويَّة الملائمة بغية الوصول إلى هدف وقصد ثابت[9].

والقصدية في رسالة الصاهل والشاحج هي المضمون والمحتوى ومراد أبي العلاء من نصه، حيث كان النص على لسان حصان وبغل، تضمن إبداعات أبي العلاء وتفرغه وتميزه في تفجير كتاباته وأساليبه المتنوعة عبر مستويات مختلفة من رسالته، التي استعمل فيها فيضا غزيرا من غريب الألفاظ وشتى ألوان الزخرف البديعي، وألوان البلاغة.

المعيار الثالث: التقبلية والقبول

معيار التقبلية أو القبول هو معيار تجاوزي لغوي وغير لغوي، يختص به المتلقي للنص أو الرسالة أو القارئ أو المستمع لها، إذ هو عليه المعول في تقبل النص الملقى عليه أو النص الذي يقرؤه أو الذي يسمعه، من خلال عدة معايير وشروط من بينها ما تخص النص ذاته كالسهولة وعدم التعقيد، وجمالية الأسلوب، ودقة التعابير، وحسن الألفاظ، وأهمية الموضوع... الخ، ومنها ما يختص بنفسية المتلقي وذهنيته من قدرات وكفاءات محددة، واستعدادات ذهنية مسبقة.

أ- **دقة الموضوع وأهميته:** محتوى الرسالة ومضمونها العام: وذلك من خلال ما حملته أشخاص الرسالة الصاهل، الشاحج، حذام، علي، الجعمي .. الخ

ب- **الأسلوب:** الجناس بنوعيه، والسجع، والتزويق اللفظي: من الفنون البديعية التي تقتضي جرسا موسيقيا تلذه وتطرب له الأسماع وتستحسنه الأذواق، ويثير الذائقة، لتقبل عليه وهي طائعة مطواعة.

كيس ← جناس ناقص ← تنكيس

أعوان ← سجع ← أمان

النموذج الأول: القول ما قالت حذام. تلك الحسناء بعدت من الذام

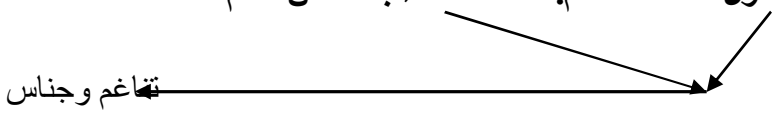

هنا نجد استخدام الجناس الناقص، بين لفظ: حذام، ولفظ: الذام، وهو جناس ناقص، وظفه أبو العلاء المعري في نصه بأسلوب رائق جميل، ينم عن حس بلاغي مفعم بروح العلم والمعرفة في توظيف واستخدام الرمزيات التي تتوافق مع الموضوع المراد توصيله.

النموذج الثاني: إلى حضرة مواس آس، قد بسط آمل الناس

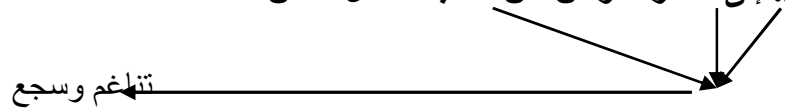

في هذا التركيب نجد أن أبا العلاء المعري قد استخدم السجع بصورة دقيقة، من خلال توالي الحروف وموافقتها للمعنى الذي شحنت به الألفاظ، فقد استخدم حرف السين، وهو حرف صفيري في لفظ: مواس، آس، الناس، ليعطي ذلك التناغم الخفي بالهمس الرقيق، دون قوة أو شدة، والسين أيضا موجود في اللفظ: بسط، فالكلمات كلها مسجوعة متقاربة الرتبة، دون فواصل كبيرة تبعدها عن هذا التناغم، وهذا هو أعلى درجات السجع.

النموذج الثالث: يعتقد أن الإنفاق أفضل من الإشفاق

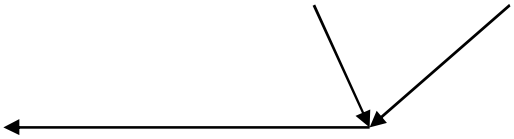

هنا نجد استخدام الجناس الناقص، بين لفظ: الإنفاق، ولفظ: الإشفاق، وهو جناس ناقص، وظفه أبو العلاء المعري في نصه بأسلوب رائق جميل، ينم عن حس بلاغي مفعم بروح العلم والمعرفة في توظيف واستخدام الرمزيات التي تتوافق مع الموضوع المراد توصيله.

الألفاظ الموحية:

النموذج الأول: دون عينك حجاب قد شد، لو كان دون العين النابعة لما فارت

إذا نظرنا إلى هذا التركيب نجده مفعم بالحيوية والإيحاء فمثلا: حجاب قد شد: يوحي لنا أن هناك حاجز قوي وسد منيع دون الشاحج، وهو الذي لا يستطيع دخول المدينة، وشد الحجاب يوحي أنه كان بأمر آمر وليس عفوي أو عشوائي، فالأمر مقصود لذاته، والعين المذكورة هنا هي العين الباصرة، وهنا مجاز مرسل علاقته الجزئية، فقد ذكرت العين وهي الجزء وأريد الشاحج، وهو المعني، واختيرت العين لأنها مناط النظر والبصر، لتقوية المعنى فكأنه يوحي بأن الحواجز قد شدت أمام بصرك، فلا تتجاوز مكانك، وهذا قمة البلاغة، بتوظيف المجاز والإيحاء، أما العين النابعة هنا هي العين الفائضة كثيرة السيلان، ليوحي بقوة الحجاب والسد والمنع الشديد الذي مني به الشاحج.

النموذج الثاني: عرفت كرمك في وطئك وصوتك

وهنا أيضا تكاد هذه الكلمات تنطق لتعبر عما حملته من معاني، وما شحنت به من دلالات، وما احتوته من إيحاءات، فالوطء هو ضرب خفيف يوحي بالقدوم والمجيء، وذلك قد كان بوقع حوافر الصاهل، وهذا إيحاء بقوة الصاهل وارتقاء منزلته ومكانته، فقد عرف مجيئه من خلال وطئه وضربه الأرض، وقد كان لصوته الدلالة نفسها، ففي صوته الكرم والعز والجاه، وهذا يعكس قوة صهيل الصاهل ولطفه وجاذبيته.

النموذج الثالث: فرض على المنتسب عرفان الخال

هذا قول الشاحج، لما سأله الصاهل، فقال الأمر فرض وواجب على من أراد أن ينتسب، ويذكر أنسابه، أن يعرف أخواله، ومن عادة المنتسب أن يذكر آباءه، والملاحظ أن الشاحج هو كريم الخال الذي يحيل على الصاهل، وليس كريم الأب الذي يحيل على الحمار، فقد وظف أبو العلاء المعري هذه الألفاظ قوية الدلالة شديدة الإيحاء، لما للصاهل من كرم وارتقاء والذي يستطيع دخول بلاط الحاكم، ويلج المدينة عبر أسوارها دون منع أو رفض، وهذا ما لا يستطيعه الشاحج.

النموذج الرابع: إن كان للنجم ظهور فإنه بالقمر مبهور

لهذا التعبير الذي يلامس الحكمة في دلالته إيحاء جلي، فهذا من كلام الشاحج للصاهل، وكأنه يلمز له بكرامة جاهه وارتقاء مرتبته، بوصفه بالقمر المضيء ليلا، ودون سواه فَهُم النجوم التي لا تستطيع مجاراة القمر في إضاءته ونوره، ويوحي بأن الصاهل مدار الحديث وقبلة الآخرين في النظر إليه والانبهار به وبكرمه وجاهه وقوته وصوته، وهذا ما جعل له حظوة في بلاط الحاكم، ويحيلنا هنا إلى أن الشاحج قد استخدم أسلوب المدح للتأثير في الصاهل كي يقبل عليه ويقبل بأخذ رسالته.

المعيار الرابع: الإعلامية

الإعلامية هي معيار متضمن داخل النص ذاته يعني بكل يحمله النص من أخبار جديدة وأحداث متوقعة وغير متوقعة، تتقاطع في الكثير من الأحايين مع المعارف والمعلومات التي شحنت بها الألفاظ والتعابير النصية، هذه الأخبار والأحداث تلخص في:

- **فحوى الرسالة ومحتواها:** وهي أصل الحدث، ومناط الخبر، وهي المضمون العام الذي يريده السارد أبو العلاء المعري أن يوصله إلى المتلقي بكل مستوياته، مستخدما جميع أشكال السرد المتضمنة في الحوار الدائر بين الصاهل والشاحج.
- **التعابير التي شحنت بالحمولات الدلالية:** في نص الصاهل والشاحج نجد هذا المستوى من العبارات الدقيقة التي تضمنتها الرسالة بكل قيمها ومعاييرها الدقيقة، فكانت التعابير مستقاة من واقع أبي العلاء المعري، تعكس حال المدينة، وتعكس نفسية السارد أبي العلاء المعري، وتظهر ثقافة المعري وعلومه ومعارفه.
- **الألفاظ الموشحة بالجناس والسجع:** وهذا اللون من الألفاظ قد وظفه أبو العلاء المعري كثيرا في رسالته، فنجد الجناس بنوعيه، والسجع بأشكاله، وهو ما يعكس الذائقة الفنية لأبي العلاء المعري، وميولاته نحو التزويق اللفظي الذي يدرك بالسمع، لأنه يستخدم حاسة السمع دون البصر، وذلك لأنه قد فقد بصره صغيرا، وهذه الألفاظ التي تضمنت هذا التزويق والتناغم الحرفي قد وظفت توظيفا دقيقا يخدم الجانب الإعلامي للرسالة المتضمنة في النص.
- **الحجة والدليل:** نجد في رسالة الصاهل والشاحج قوة الحجة والدليل على صدق مقولات الصاهل والشاحج، من خلال توظيف الاقتباس كثيرا، فالآيات الكريمة وظفت بشكل واضح، كما نجد تضمين النص الأبيات الشعرية القصيرة والطويلة، كما أن أبا العلاء المعري قد أدرج الكثر من الحكم والأمثال في مستدرج كلامه على لسان الصاهل والشاحج بوصفها حجة ودليلا على الحوارية في النص.

المعيار الخامس: الموقفية أو الموقف

الموقفية تختص بالسياق العام وتنوعاته من السياق الخارجي واللغوي والثقافي والعاطفي النفسي وقد وضح السارد أبو العلاء المعري في بداية نصه هذا الموقف العام حينما بين سياق نصه، وشخصياته موضحا الغاية والمقصد من هذا النص.

والموقفية هي ما تعطي لنا الجو العام الذي يحيط بمقتضيات الأحداث التي ستكون مسرودة ضمن حواريات خاصة، وهنا في رسالة الصاهل والشاحج لأبي العلاء المعري كان الحوار مقتصرا بين الصاهل والشاحج، والحوار بمستوياته الداخلية والخارجية، فالمستوى الداخلي ما كان عبارة عن تساؤلات داخلية تتصارع في ذهن الصاهل أو الشاحج دون الإذعان بها، وهي عبارة عن اضطراب ذهني، وذهول، أو شكوك وحيرة، تكتنف صاحبها، أما الخارجي فهي تلك الأسئلة المباشرة أو غير المباشرة والتي تكون منطوقة إما من الصاهل أو الشاحج تقتضي جوابا.

وهذا السياق الذي ورد في رسالة الصاهل والشاحج كان مرتبطا بالأحداث من بدايتها، يسير حسب سردها بدءا من الالتقاء الذي حدث بين الصاهل والشاحج في بداية الأمر، حتى نهاية هذه الأحداث.

المعيار السادس: التناص أو التناصية

التناصية هنا هي تداخل النصوص وتفاعلها مع بعضها، من حيث الاقتباس والتضمين والقوالب النصية المتعددة، وقد كان التناص ظاهرا في نص الصاهل والشاحج بوضوح من خلال الاستشهاد الكبير

بالأبيات الشعرية والاقتباس، والتفاعل مع نصوص المقامات من حيث الأسلوب والإكثار من السجع والجناس والتنميق اللفظي والتزويق الأسلوبي.

والتناصية في رسالة الصاهل والشاحج كانت ظاهرة جلية في العديد من مستويات السرد اللغوي، تضمنت العديد من مستويات المقامات، المنبنية على التنميق والتزويق اللفظي، وسرد الحدث ممزوجا بزمنه ومكانه وسياقه، مع الحوارية بين الصاهل والشاحج، كما تتمظهر التناصية في إدراج الاستشهادات والاقتباسات الكثيرة، وضرب الحكم والأمثال تقوية للنص.

خاتمة:

في ختام البحث يمكن لنا أن نتبين بأن مظاهر النصية قد تجلت بوضوح على مستوى السرد في التراث العربي، كما رأينا بعض تجليات ذلك في رسالة الصاهل والشاحج لأبي العلاء المعري 449هـ، والذي أظهرت براعة صاحبها في تناسق نصه، وانسجام وحداته، وقد اشتمل على جميع المعايير والشروط السردية القصصية، من حوار وتشخيص وتمثيل ولغة وأحداث ووقائع وزمن ومكان، فجاءت لغة الرسالة بمستويات متعددة معجما وتركيبا ودلالة، ومن نتائج الدراسة في مجملها:

- استخدم أبو العلاء المعري بعض الألفاظ ذات العمق القوي مثل: قموصُ وراجنة وشاجنة والنصفة والمَحْرَدُ، والذي يعكس حياة ونفسية المعري الرافضة للعنف المفرط لبني البشر، فلغة النص عكست مظاهر الحياة في عصر المعرّي.
- يتمظهر معيار الاتساق والانسجام على مستوى الصاهل والشاحج بوضوح على مستوى السبك والربط والإحالات بأنواعها، وهذا ينعكس على جميع السرد الفني في التراث العربي.
- البناء النصي في رسالة الصاهل والشاحج بناء رصين يحقق المعايير الستة للنصانية، كالقصدية والاتساق والانسجام والإعلامية والتقبلية والموقفية والتناص، وتتجسد جميع هذه المعايير الستة للنصانية في نصوص السرد الفني باختلاف أنواعه وأنماطه، وتتنوع في تمظهراتها بشكل متفاوت.
- في رسالة الصاهل والشاحج نجد توظيف عميق لألوان البيان والبديع والتزويق والتنميق اللفظي، القائم على حاسة السمع دون البصر، وهذا ما يعكس حال أبي العلاء المعري الذي كان ضريرا لا يبصر، فقد فقد بصره صغيرا.
- في رسالة الصاهل والشاحج توظيف كبير للألفاظ الموحية والتعابير ذات الإيحاءات العميقة، مثل: لفظ العين، وهذا يعكس حال المعري، من خلال شعوره بفقدان حاسة البصر، والصاهل لتدل على القوة والكرم، والجاه، وما للحصان من أهمية وحظوة بالغة وجلية عند العرب، والشاحج للابتذال والنقص.
- تضمنت رسالة الصاهل والشاحج إبداعات أبي العلاء وتفرغه وتميزه في تفجير كتاباته وأساليبه المتنوعة عبر مستويات مختلفة، التي استعمل فيها فيضا غزيرا من غريب الألفاظ وشتى ألوان الزخرف البديعي، وألوان البلاغة.
- نجد في رسالة الصاهل والشاحج قوة الحجة والدليل، من خلال توظيف الاقتباس كثيرا، بإدراج الآيات الكريمة، وتضمين الرسالة للأبيات الشعرية القصيرة والطويلة، كما أن أبا العلاء المعري قد أدرج الكثر من الحكم والأمثال في مستدرج كلامه على لسان الصاهل والشاحج بوصفها حجة ودليلا على الحوارية في النص، تنم عن موسوعيته وشساعة اطلاعه، وثقافته الواسعة، وحسه الديني والفلسفي.
- تمثل رسالة الصاهل والشاحج سياقا نصيا أبدعه أبو العلاء المعري، تحققت على مستواه جميع المعايير النصية، والشروط الفنية، وتعد نموذجا مهما لجميع الأجناس السردية في الترا العربي.

- من أهم الخصائص السردية لرسالة الصاهل والشاحج اكتمال البناء الفني فيها، من حيث وحدة الموضوع وتماسكه واكتمال عناصره، تنوع المعاني والدلالات وغزارتها، سهولة الألفاظ وعذوبتها، وقوة إيحاءاتها، دقة العبارة وسلاستها.

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن منظور، لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير وغيره، دار المعارف، ج3.
- محمد رجب النجار، النثر العربي القديم من الشفاهية إلى الكتابية، دار العروبة، الكويت، ط2، 2002م.
- أبو العلاء المعري، رسالة الصاهل والشاحج، تح: عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، مصر، ط2، 1984م.
- سعيد حسن بحيري، دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط1، 2005م.
- سعيد حسن بحيري، علم لغة النص: المفاهيم والاتجاهات، مكتبة لبنان ناشرون، لونجمان، ط1، 1977م.
- أحمد عيد، المستوى اللغوي للفصحى واللهجات، دار الثقافة العربية للطباعة، القاهرة، مصر، ط 1981م.
- أحمد حسن الحسن؛ الضوابط التداولية في مقبولية التركيب النحوي، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، مجلد11، عدد2، ديسمبر 2014.

الهوامش:

[1]- ابن منظور، لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير وغيره، دار المعارف، مادة سرد، ج3، ص 211.

[2]- ينظر: محمد رجب النجار، النثر العربي القديم من الشفاهية إلى الكتابية، دار العروبة، الكويت، ط2، 2002م، ص 252.

[3]- هو الفيلسوف الشاعر الحكيم، والسارد الدقيق أبو العلاء المعري، ولد سنة 363 هـ في معرة النعمان في بيت علم، حيث كان أبوه من رجالات العلم بالمدينة، كما كان جده يمارس القضاء بها، أصيب أبو العلاء بفقد بصره وهو دون الرابعة من عمره بسبب إصابته بمرض الجدري، تلقى تعليمه الأول عن أبيه فأخذ عنه بعض علوم العربية والمنطق، ثم تتلمذ على العديد من علماء بلدته، وسافر وارتحل إلى عدة بلدات بغية التعلم والاستزادة من المعارف، واعتزل الناس في آخر حياته، والتزم بيته، لا يخرج منه واستغل هذا الموقف فراح يؤلف ويصنف ويكتب الرسائل ويقول الشعر، إلى أن توفاه الله سنة 449 هـ بمسقط رأسه. ينظر: أبو العلاء المعري، رسالة الصاهل والشاحج، تح: عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، مصر، ط2، 1984م، ص 17 وبعدها.

[4]- ينظر: سعيد حسن بحيري، دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط1، 2005م، ص 264.

[5]- ينظر: أحمد عيد، المستوى اللغوي للفصحى واللهجات، دار الثقافة العربية للطباعة، القاهرة، مصر، ط 1981، ص 7.

[6]- ينظر: أبو العلاء المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص 17.

[7]- ينظر: سعيد بحيري، علم لغة النص: المفاهيم والاتجاهات، مكتبة لبنان ناشرون، لونجمان، ط 1، 1977م، ص 108.

[8]- أبو العلاء المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص 15.

[9]- ينظر: أحمد حسن الحسن؛ الضوابط التداولية في مقبولية التركيب النحوي، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، مجلد11، عدد2، ديسمبر 2014، ص 247.